

مصر بين ثقافتين

الصراع القديم بين الانكليزية والفرنسية

وموقف مصر من ذلك الصراع

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعرف المتصلون بدوائر التعليم والثقافة في مصر أن صراعاً قوياً يجري بين الثقافتين الفرنسية والانكليزية ، تارة في الجهر وتارة في الخفاء . وقد كان تيار الثقافة الفرنسية هو الظاهر حتى أواخر القرن الماضي ، وكان يثمر المجتمع المصري المثقف ، فلما رسمت سياسة الاحتلال الانكليزية خطط الغزو المعنوي ، اهتمت بتنظيم التعليم والتربية ، وأخذت تعمل لتوجيهها بما يوطد نفوذ الثقافة الانكليزية ويطبع الجيل الجديد بمحبتها والتعلق بها ، فقلبت نظم التعليم ، وحلت الانكليزية مكان الفرنسية في معظم المواد ، وتولى الأساتذة الانكليز مقاليد الادارة والتعليم في معظم المعاهد ، وتحول سبيل البعثات الحكومية من فرنسا إلى انكلترا ؛ ولم يعب ربح قرن حتى تم الانقلاب المنشود ، وأسبغت على سياسة التربية والتعليم في مصر صبغتها الانكليزية المحضة ، وخرج الجيل الجديد من الشباب المتعلم يحمل تيار الثقافة الانكليزية ، وتتضاءل نفوذ الثقافة الفرنسية ويختصر في بعض الجهات والمعاهد الأجنبية التي تعمل على نشرها

كان هذا الصراع بين الثقافتين الأجنتين على حساب لغتنا العربية وثقافتنا القومية ، فلم تصب العربية خلاله حظاً يذكر من التقدم ، وأغفلت كل المثل والاعتبارات القومية من برامج التعليم والتربية ، وأوشك هذا الغزو الاستعماري المعنوي أن يقضي على أرواحنا وعقولنا ، لولا أن وثبت البلاد وثبها الوطنية في سنة ١٩١٩ ، وتذعرت للمقاومة بما بقي لها من العناصر الحيوية الكامنة ، واستطاعت أن تحول السياسة الاستعمارية عما كانت تعمره من خطط الاستئثار الشنيع والقضاء على الحقوق والأمان الوطنية نهائياً ، وأن تحرز بعض الغم في ميادين السيادة القومية . وكان التعليم أحد هذه الميادين ، فحررت نظمه وبرامجه من اغلالها

القديمة نوعاً ، وأنصفت اللغة العربية وأخذت تتبوأ مكانيها اللاتني كلفة أساسية لتدريس المواد في معظم المعاهد ومراحل التعليم ، وكان ذلك ظفراً حقيقياً للغة البلاد

ولكن هذا التطور في ميدان التعليم والثقافة لم يحل دون استمرار المركة القديمة بين الثقافتين الانكليزية والفرنسية ؛ فقد بقيت الفرنسية لغة اضافية في التعليم الثانوي ، وضعف تيار الانكليزية بما أتيسح للعربية من مجال قوى للعمل والمنافسة ؛ وظهر الضعف في الانكليزية بين الطلبة قوياً ، وأخذ نفوذ الثقافة الانكليزية الذي كان متمكناً منذ عشرة أعوام فقط ، يتضاءل بسرعة ؛ واهتم الانكليز لهذه الظاهرة ؛ وبحث ولالة الأمر في أسباب ضعف الطلبة في اللغة الأجنبية الأساسية أعني الانكليزية ، وتضاربت فيه الآراء الفنية والعملية ؛ أما نحن فلنا فيه رأى لا نرى بأساً من إبدائه ، وهو أن هذا الضعف لا يرجع فقط إلى قصور الجيل الجديد من الأساتذة الانكليز ، ولكنه يرجع بالأخص الى عوامل قومية ، خلاصتها أن الخصومة القائمة بين مصر وانكلترا تحمل الطالب المصري الذي أشربت نفسه بمبادئ الوطنية على نوع من الأسف والقضاضة لتلقى لغة الأمة الخصيعة على يد بعض أبنائها ، وأن الأساتذة الانكليز لا يؤدرون مهمتهم في المعاهد المصرية كأساتذة فقط ، ولكنهم رسل استعمار وسيادة أجنبية ، ينظرون إلى الطلبة نظرة السادة إلى الرعايا والمحكومين ، وفي أقوالهم وإشاراتهم دائماً ما يجرح شعور العزة القومية في هذه النفوس النضة ويذهبا في بضاعة هؤلاء الأساتذة المتكبرين ، ولو قام بتدريس الانكليزية أساتذة مصريون ممن تخصصوا في دراستها ، لكان ذلك أجدى وأنفع ، ولزال كثير من أسباب هذه الشكوى

ولسنا نقف طويلاً بهذه النقطة ، وهي ثانوية في نظرنا ؛ ولكننا نريد أن نعرض الى ما هو أهم من أطوار هذه المركة المستمرة بين الثقافتين الانكليزية والفرنسية ؛ فقد طلب ولالة الأمر في وزارة المعارف أخيراً الى بعض الأساتذة الانكليز أن يسدوا رأيهم في سبب ضعف الطلبة في اللغة الانكليزية ، فصرحوا في تقريرهم الذي رفعوه الى وزير المعارف بأن من أهم أسباب هذا الضعف في نظرهم هو اشتغال الطلبة بدراسة لغة أجنبية إضافية هي الفرنسية الى جانب اللغة الأجنبية الأصلية وهي

مقامها في هذه البلاد ، وكل تحاول أن تدعم نفوذها وأن تزيد بطريق المدارس والمباني الدينية والمؤسسات الخيرية المقتنة ، وكل تدعى لأبنائها بمعضل الإدارات والمناصب الفنية في الحكومة المصرية قياساً على الماضي كأن الزمن لم يتغير ، ولم تحرز مصر تقدماً ، ولم تجش بأمنية التحرر من هذه الوصايات الخطرة

ففي هذا المعترك تتخبط مصر ؛ وإزاء هذه الجبهة المشتركة من الثقافات واللغات الأجنبية المتنافسة في غزو عقولنا وأرواحنا تقف اللغة العربية وحيدة في الميدان . وقد أنصفت اللغة العربية في العهد الأخير نوعاً كما قدمنا ، ولكنها ما زالت في حاجة إلى انصاف أتم وأوفى ؛ وهي اليوم بلا ريب أقوى وأشد كفافاً ومقاومة ، وقد أتيج لها أخيراً أن تدلل على حيويتها المدهشة باستعمالها في تدريس كثير من مواد الدراسات العالية التي كانت تفلق قبلاً دونها بحجة قدمها وقصورها . غير أن العربية ما زالت في مهادها الرسمية عرضة لمنافسة قوية من اللغتين الانكليزية والفرنسية ، الأولى كلفة أجنبية أساسية ، والثانية كلفة أجنبية إضافية . والواقع أن هذه الفرنسية الإضافية لم تبق لها أية قيمة عملية في الدراسة ، ولما ينتفع الطلبة بتعليمها ، وإنما هي أثر من آثار الصراع القديم والعهد الماضي ، فقيم بقاؤها اليوم عنصراً من عناصر الارهاق والتعطيل ؟ قد يكون في اقتراح الأساتذة الانكليز ما يبعث على الشك في نزاهته وأنه يرمى قبل كل شيء إلى تخلص اللغة الانكليزية من منافسة قديمة . فليكن ؛ ولكننا نستطيع أيضاً أن نحول هذا الالتقاء لمصلحة اللغة العربية والثقافة القومية ، ذلك أن اللغة العربية تتخلص أيضاً بالقاء هذه الفرنسية الإضافية من منافسة لا مبرر لها وليست لها قيمة علمية تذكر ؛ ويكفي أن تضطلع العربية بالدفاع عن نفسها أمام غزو لغة أجنبية رسمية واحدة ، وأن تقف مع الانكليزية وجهاً لوجه ، وأن تكسب بذلك قوة جديدة وأن تغزو ميداناً جديداً للعمل والكفاح

في وسع مصر أن تلتقي الفرنسية من معاهدها ، ولكنها لا تستطيع لظروفها السياسية الخاصة أن تلتقي الانكليزية . وإذن فلا خير أن تلتقي الفرنسية ؛ وفي الانكليزية كلفة ثقافة عالية ما يكفي لتزويد المتعلم بكل ما بطمح إليه من صنوف العلوم والمعارف الحديثة ، وكفى ما تلقاه البلاد من غزو ممنوى متظم على يد المهاد

الانكليزية ، وأنه يجب إلغاء تدريس اللغة الفرنسية من التعليم الثانوي إذا أريد أن يتفرغ الطلبة لدراسة الانكليزية وأن تقوى مادتهم فيها . وقد كان إبداء هذا الرأي مثاراً لكثير من الجدل ، ولا سيما من جانب الأساتذة الفرنسيين ومحبي الثقافة الفرنسية وأنصارها ، فأخذوا يفندون رأي أساتذة الانكليز ويدللون على أهمية الثقافة الفرنسية بالنسبة لمصر ووجوب تفضيلها على أية ثقافة أجنبية أخرى

وموقف الأساتذة الانكليز من اللغة الفرنسية طبيعي معقول ، وسواء أكان رأيهم فنياً مجرداً عن كل اعتبار أدبي آخر ، أم كان مفرضاً موحى به ، فلا ريب أنه يمثل ناحية من نواحي هذه المعركة الخالدة بين الثقافتين الأجنبيتين اللتين تتنازعان النفوذ في مصر منذ نصف قرن . ويلوح لنا أنه من جهة أخرى رأى عملي سليم من الوجهة الفنية إذا جرد عما قد يكون وراءه من الاعتبارات والعوامل ؛ فالطالب إذا تفرغ لدرس لغة أجنبية واحدة دون أن تزجه لغة أجنبية إضافية أخرى ، يستطيع أن يحرز في هذه اللغة شيئاً من التقدم . وما دام أن ظروفنا سياسية خاصة تقضي بأن تكون الانكليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية في مصر إلى جانب اللغة العربية ، وما دام أن مصر لا تستطيع في الوقت الحاضر أن تقرر اختيارها حراً مطلقاً ، فلا مناص من أن نصنع بالأمر الواقع ، وأن نبحت المسألة على ضوء هذه الحقيقة الانكليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية التي تقررت في نظام تعليمنا . ومن السلم به أن تعليم اللغات الأجنبية الحية عنصراً جوهرى من عناصر الثقافة الناضجة ، وفي جميع الأمم العظيمة التي تتمتع بحضارة رفيعة ، تعلم لغة أجنبية أو أكثر إلى جانب اللغة القومية ؛ وهذا ما تفعله مصر بتعليم الانكليزية . ومن المحقق أن الانكليزية في مقدمة لغات الأرض انتشاراً وأهمية ، وإن الثقافة والآداب الانكليزية في طليعة الثقافات والآداب العالية الرفيعة . ولكن من سوء الطالع ، أن تكون الانكليزية في مصر إلى جانب هذه الاعتبارات العلمية ، أداة للنفوذ الاستعماري ؛ ومن مصائب مصر أنها ما زالت مسرحاً للمنافسات الأجنبية ؛ والثقافة الفرنسية أو بعبارة أخرى الثقافة اللاتينية ، والثقافة الانجلوسكسونية ، واللغة الألمانية ، واللغة الإيطالية ، كل تحتل

الأجنبية فرنسية وغيرها ، وكأها تقوم برسالة غير رسالة العلم الخالص

لسنا نجد موضعاً للمفاضلة بين الفرنسية والانكليزية فكلماتها من أعظم اللغات الحية سواء في العلوم أو الآداب أو الفنون ، وكلماتها من أهم اللغات الدولية في المعاملات التجارية . وللسنا من أنصار ثقافة أجنبية بعينها ، وإنما تؤيد الأخذ والاعتباس من كل ثقافة رفيعة . ولكن الأساندة الفرنسيين في وزارة المعارف وأنصار الثقافة الفرنسية في مصر يضجون لفكرة إلغاء اللغة الفرنسية من مواد الدراسة الرسمية ، ويشفقون على مستقبل الثقافة الفرنسية في هذه البلاد ، فلم هذه الضجة ولم هذا الاشفاق ؟ يقولون إن الثقافة الفرنسية هي أصلح الثقافات الغربية لمصر ، وإن النهضة المصرية الأخيرة بدأت على أساس الثقافة الفرنسية واستمرت كذلك طوال القرن الماضي ، وإن قادة الحركة الفكرية الحديثة في مصر تلقوا العلم جميعاً في فرنسا ، وإن الصلات التاريخية والاجتماعية القديمة بين مصر وفرنسا ، وكون مصر اقتبست قوانينها الحديثة من القانون المدني الفرنسي ، وكون اللغة الفرنسية ما تزال لغة المعاملات المختلفة في مصر ، وأخيراً كون مصر أمة من أمم البحر الأبيض التي تغمرها الثقافات اللاتينية : كل هذه العوامل تحتم الإبقاء على اللغة الفرنسية في مصر ، والمضي في الاقتباس من الثقافة الفرنسية وتوثيق هذه الروابط المعنوية بين البلدين

ونحن لا نود أن نجادل في هذه الوقائع من الناحية المادية ، ولكننا نلاحظ فقط أن مصر الحديثة لم تنجح إلى اختيار الثقافة الفرنسية قصداً بحض اختيارها ؛ وإنما هو مجرى الحوادث القاهرة الذي ساقها إلى هذا السبيل ، فقد نظم الفرنسيون حينما غزوا مصر في خاتمة القرن الثامن عشر ، غزوهم المعنوي إلى جانب الغزو السيامي ، وعنوا بيت ثقافتهم في مصر عناية خاصة ؛ ولا استخلص محمد علي حكم البلاد لنفسه ، ألقي أمامه بقية قائمة من هذه الثقافة ، وألني الفرنسيين على أهبة لماونته ، وقضت ظروف سياسية معينة أن يقبل هذه المعاونة وأن ينتفع بها في تنظيم إدارته وإصلاح جيشه وماليته ؛ وفي ظل هذه الظروف أرسلت البعثات المصرية الأولى إلى فرنسا ، وقد كانت يومئذ أوثق الدول الغربية صلة بمصر ، واستطاعت فرنسا أن تقوى نفوذها

المعنوي والثقافي بمصر ، وغدا هذا النفوذ يمرور الزمن ظاهرة قائمة في الحياة المصرية ، واستمر ينتج أثره في طبع المجتمع المصري الثقاف بالطابع الفرنسي حتى أواخر القرن الماضي . هذه هي قصة الثقافة الفرنسية بمصر ، فلم تكن مصر عامدة أوحرة في اختيارها ولم تحترها وتؤثرها لأنها أصلح الثقافات لها ، أو لأن ظروفها الجغرافية والاجتماعية كاحدى أمم البحر الأبيض تحتم عليها أن تسير وراء الثقافة اللاتينية ، أو لغير ذلك مما ينتحله أنصار الثقافة الفرنسية في مصر ؛ ولم يكن الأمر أكثر من حادث تاريخي عرضي زالت البواعث والظروف التي أدت إليه منذ بعيد

لسنا ننتقص من الثقافة الفرنسية أو غيرها من الثقافات الغربية الرفيعة ، ولكننا سئمنا هذا التنافس على غزونا من طريق اللغات والثقافات ، ولا نريد بعد أن نعتبر منطقة نفوذ لهذه الثقافة أو تلك ، ونريد قبل كل شيء أن نوحّد جهودنا المعنوية في مقاومة الغزو الذي لامناص من قيامه في معاهدنا ومدارسنا ؛ ذلك هو الغزو الانكليزي ؛ ولن يكون ذلك إلا بالعمل على تمييز اللغة العربية وتقديمها ، وتميز عناصر الثقافة القومية في صدور الشباب . ومن حسن الطالع أن هذا الغزو الانكليزي المنظم لعقولنا لم يصادف كثيراً من النجاح رغم استنثاره في عصر ما بجميع المواد والدراسات ؛ ذلك لأننا نشعر دائماً بما وراءه من الظروف والاعتبارات التي لا يرتاح إليها ضميرنا القومي ، ولأننا نشعر دائماً أنه غزو مفروض علينا في معنى من المعاني . وليس معنى ذلك أننا لم نجني غنا علمياً من دراسة الانكليزية ، ومن التنقّف بثقافتها ، فقد جئنا بالعكس منها فوائد جلية ، ولكننا نعتقد أن هذا النعم يكون مضاعفاً لو أن مصر استطاعت أن تتحرر من كل نفوذ معنوي ، وأن تختار لنفسها ماشاءت من ألوان الثقافات المختلفة التي تحقق أمانها الوثابة دون أن تجني على بنائها وتقاليدها القومية ؛ ونحن على يقين من أنه يوم يتاح لنا مثل هذا الاختيار الحر ، لانتطيع أن نرى في الانكليزية إلا أنها في مقدمة اللغات والثقافات ، ولانجد غضاضة في أن تكون هي اللغة الأجنبية الأساسية ، وأن تكون أداة لسد كل نقص نشعر به في دراساتها

والخلاصة أننا لا نجد غضاضة ولا ضرراً في إلغاء الفرنسية